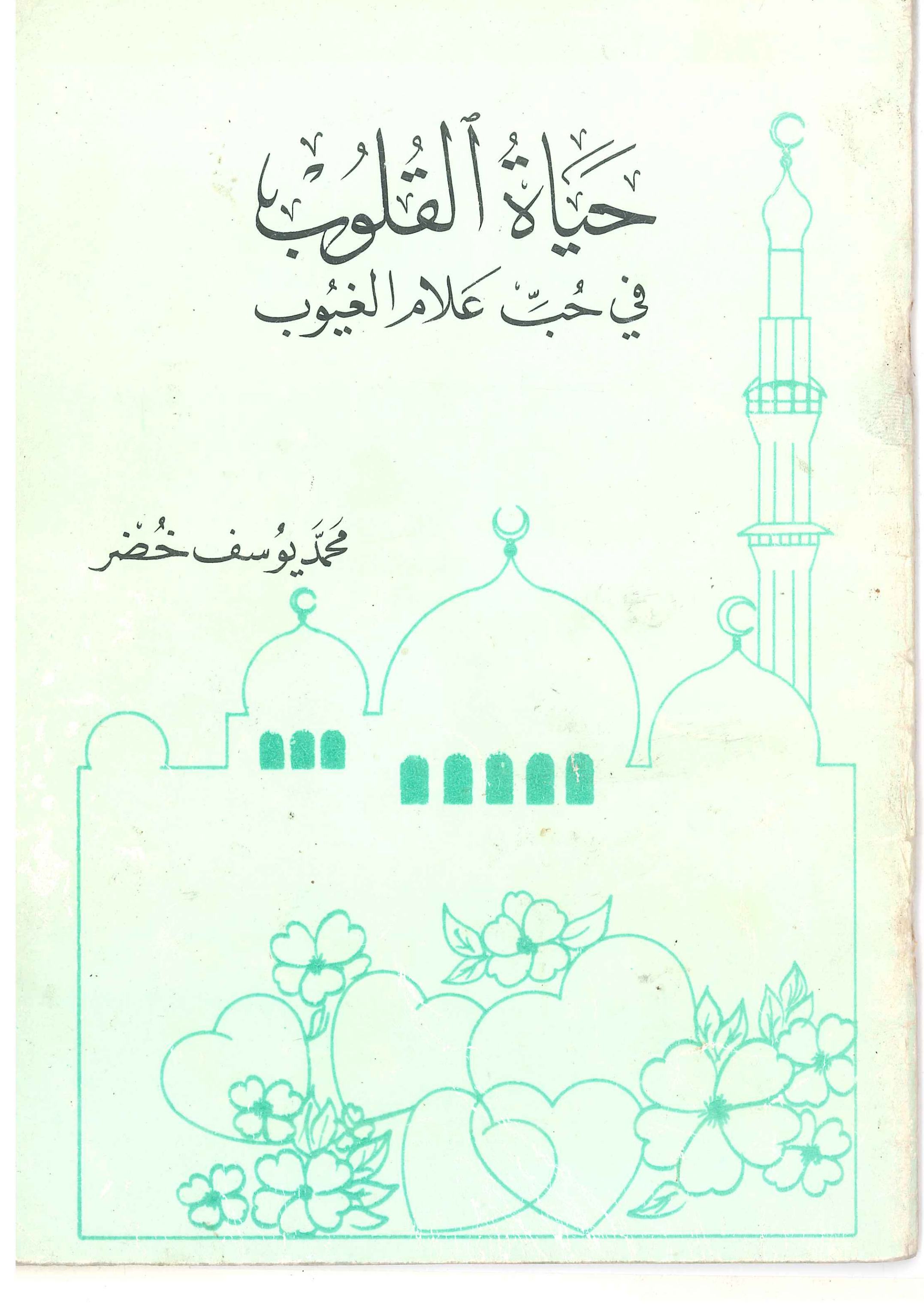

حياة القلوب
في حُبّ علام الغيوب
محمّد يوسف خضر

عن روح المرحوم الشيخ الفاضل

محمد يوسف خضر

رحمه الله

«حياة القلوب

في

حبّ علّام الغيوب»

تأليف الأستاذ محمد يوسف خضر

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

٢١٤٫٦١
محمـ محمد يوسف محمد خضر
حياة القلوب في حب علّام الغيوب/ محمد يوسف محمد خضر.ـ
عمّان: (د.ن)، ١٩٩٢.
(٤٧)ص
ر.أ. ١٩٩٢/٣/١٥٤.
١. العقيدة الإسلامية أ. العنوان
٢. الإيمان.
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا يشكُّ أحد لحظة واحدة أنّ أعظم شيءٍ في حياته هو «القلب الـذي بين جنبيه»، فهـو مصدر الحياة الحقّة، وهو مصدر الأمل والشعاع، وهو مصدر الإيمان والتصديق، وهو مصدر الكفر والنفاق، وهو مصدر الحقد والكراهية، فالقلب، هو الليل والنهار، هو الشمس والقمر، هو البيان الظاهر وهو الغموض المبهم،

نَعَمْ، إن القلبَ هو مَلِكُ الجوارح وقائدها، هو مقرّ الخواطر والإلهام فيتحرّك، فتتحرك الجوارح تبعاً له،

نَعَمْ، يقول عليه السلام «إنّما الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرىءٍ ما نوى»

وأين مصدر النيّة، إنّه القلبُ،

نَعَمْ، وحتى الحساب في اليوم الآخر، يكون على ما أصدره وخَزّنَه، فالله لا ينظر إلى أشكالنا، بل إلى قلوبنا، بناءً على ما سبق، رأيتُ أن أجمعَ بعض المعلومات عن القلب، مقتبساً ذلك من كتاب الله وسنّة نبيّه عليه السلام، وبعض كلام الصالحين في ذلك، ورأيت أن أختم الموضوع بأدعية مفيدة

في هذا الباب إن صدرت من قلب مخلصٍ مستكينٍ خاشعٍ لله، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

٢١/ رجب/ ١٤١٢هـ

٢٦/ كانون ثاني/ ١٩٩٢م

الفصل الأول

«ألا إنَّ في الجسدِ مضغة»

ألا إنَّ في الجسد مضغة:

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الحلال بَيِّنٌ، وإنَّ الحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهاتٌ، لا يعلمهن كثير مِنَ الناس، فمَنِ اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدِينه وعِرْضه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمى يرتع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمىً، ألا وإنّ حِمى اللهِ محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب».

رواه البخاري ومسلم

يشير هذا الحديث الطاهر إلى أن الرسول الأعظم قد ترك لنا الحلال واضحاً جليّاً، وكذلك الحرام واضحاً جليّاً، لا يختلف في ذلك اثنان، ولكنَّ هناك أموراً تُعْرَفُ بين حملةِ الشريعة وتخفى على العامّة لأسباب كثيرة.

وما يهمّنا هنا، هو هذه المضغة الصغيرة الموجودة داخل الصدر ﴿أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور وحصِّلَ ما في الصدور﴾ ١٠ العاديات. ﴿يوم تبلى السرائر﴾ ٩ الطارق. فالتركيز كلّه على القلب وهمّته ووجهته وعزيمته، فهل هو نحو الخير صاعد، أم نحو الشر هابط، فالقلبُ هو الموَجِّهُ والمخطط وما الجوارح إلا جنود منفِّذة، فإذا صلح القلب وَصَفَا لم تُسْتَعْمَل الجوارحُ إلاّ في الحلال، وإنِ اضطرب وانحرف مالَ نحو المشتبهات، وإنْ أظلم واكفهَر وقع في الحرام ورآه حسناً!!!

عن أنسٍ (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبُه» واستقامة القلب تكون بحبّه لله تعالى، وحبِّ طاعته وكراهة معصيته، يقول الحسن البصريُّ: «داوِ قلبك، فإنَّ حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم». فلا صلاحَ للموجودات كلّها ـ المكلّفة شرعاً ـ حتى تكون حركاتُ أهلها كلُّها للهِ سبحانه وتعالى وهذا لا يكونُ إلاّ بتوفيق مِنَ الله سبحانه لعبده حيث يقذفُ اللهُ في قلب عبده نوراً من عنده، فالله نورُ السموات والأرض...



الفصل الثاني

«لكلِّ قفلٍ مفتاح»

* لكلِّ قفلٍ مفتاح(١):

قال ابن القَيِّم رحمه الله في كتابه حادي الأرواح(١): «قد جعل الله لكلِّ مطلوبٍ مفتاحاً يُفْتَحُ به، فجعل مفتاح الصلاة: الطهور.

وجعل مفتاحَ البرِّ: الصدقة.

وجعل مفتاحَ المزيد: الشكر.

وجعل مفتاحَ العزِّ: طاعة الله.

وجعل مفتاحَ الإيمان: التفكير في قدرة الله.

وجعل مفتاحَ الإثم: الخمر.

وجعل مفتاحَ الزنا: الغِناء.

وجعل مفتاحَ النفاق: الكذب.

وجعل مفتاحَ البدعة: الإعراض عن السنّة.

وأمَّا مفتاحُ حياة القلوب: فهو تدبُّرُ آيات الله، والتضرعُ إليه بالأسحار، يقول تعالى: ﴿إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، إنّ

(١) موارد الظمآن/ عبد العزيز سليمان/ جـ١ ص ٢١٢-٢١٤.

ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلا﴾ ٥، ٦ المزمل.

فقراءة القرآن على مهل، وبخاصة في جوف الليل حيث التعرضُ لنفحات الرحمن التي هي ألذُّ من كلّ لذيذٍ وأطيب الطيب، فإذا لامست القلب أنار وتحرّك شوقاً لخالقه، وإذا مَرّت عنه دون ملامسة بقي كالمصروع حيث الشقاء والتعب والحيرة ﴿ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له مِنْ نور﴾ ٤٠ النور. ﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبٍ أقفالُها﴾ ٢٤ محمد.



الفصل الثالث

«أقسام القلوب»

* **أقسام القلوب:**

لقد قسم ابن القيم رحمه الله القلوب إلى ثلاثة أقسام:

١ـ القلب السليم:

وهـو القلب العامر باللهِ، العارف به وبجلاله الكريم، قلبٌ سلمَ من الشرك والآفات والأمراض الباطنة من نفاق وكفر وحسد وغِيبة ورياء وخبث،

وهذا هو القلب القريب من الله تعالى، والذي ينفع صاحبه يوم القيامة، قال تعالى: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم﴾** ٨٩ الشعراء.

وهو قلب مخبِتٌ لله، منيبٌ إليه، يسكنُ إليه ويرتاح لجنابه الكريم كما يرتاح الطفلُ لأمّه بل يزيد، نَعَمْ، إنّه القلب الذي ينفع صاحبَهُ دنيا وآخره، فصاحبه يعيش هادئاً مستقراً آمناً، حامداً لله في السرّاءِ والضراءِ، عابداً لله، معظِّماً إياه، لا يرجو إلا الله، ولا يتوكّل إلا عليه، ولا يخاف إلا هو، فهو للهِ وبالله وإلى الله...

٢ـ القلب المريض:

وهو قلب له حياةٌ وبه عِلّةٌ وفيه صراع بين الخير والشر وهو إمّا إلى السلامة وإمّا إلى الهلاك في النهاية.

* ومن أمراض القلوب:

أ ـ مرضُ الشُّبهة: وهو عادةً يتعَلَّقُ بالعقائد والصّفات، مِنْ تجسيم أو تشبيهٍ أو نَفْيٍ أو تعطيل، وصاحِبُ هذا المرض لا يشعر به عادةً لأنه يرى أنه على حق بل ويصبر على الدعوة إلى هذا الباطل!!

ب ـ مرض الشهوة: وأكثر ما يكون عن طريق الزّنا، يقول تعالى: ﴿إن اتقيتنَّ فلا تخضعن بالقول، فيطمعَ الذي في قلبه مرض﴾ ١٣٢ الأحزاب، ومعنى المرض هنا الميل إلى الزّنا.

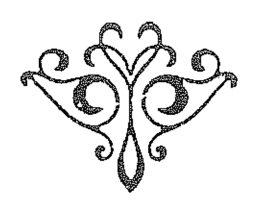
٣ـ القلب الميت:

وهو قلب الكافر، الذي لا ينكر منكراً ولا يعرف معروفاً، مظلم بالشهوات والملذات، محجوب عن ربّه بأنواع الفتن والمعاصي، ومن هذه الأنواع:

١ـ فتن الشهوات.
٢ـ فتن الشبهات.
٣ـ فتن الغيّ والضلال.
٤ـ فتن المعاصي والبدع.

٥ـ فتن الجهل والظلم.

وهذا القلب محرومٌ محبَّةَ اللهِ في الدنيا، ومحجوبٌ صاحبُه عن رؤية الله في الآخرة، نَعَمْ، ﴿**إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾.



الفصل الرابع

«موت وحياة»

علامات موت القلب:

سُئل إبراهيم بن أدهم رحمه الله عن سبب موت القلب فقال:

١ـ عرفتم حقّ الله ولم تقوموا به.

٢ـ قرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده.

٣ـ قلتم: نحبُّ رسول الله، ولم تعملوا بسنته.

٤ـ قلتم: نخشى الموت ولم تستعدوا له.

٥ـ قلتم: الشيطان عدوكم ولكنكم أطعتموه.

٦ـ قلتم: نخاف النار، وعملتم لها.

٧ـ قلتم: نحِبُّ الجنة ولم تستعدوا لها.

٨ـ نسيتم عيوبكم، وذكرتم عيوب الناس.

وقال آخر: إذا لم تحزن على ما فاتك من الطاعات ولم تندم على ما فعلته من الذنوب والزلات فقد مات قلبك؟!

وسُئل آخر، فقال: الضحك المتواصل، واللسان الثرثار علامة موت القلب.

* **أسباب حياة القلب:**

١ـ قوة العلم والتمييز.

٢ـ قوة الإرادة والمحبّة.

٣ـ معرفة الحق واتّباعه، والناس مع الحق ثلاث:

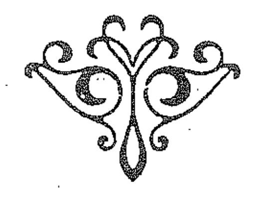
أ ـ صنفٌ عرفَ والتزم وهم المنعَمُ عليهم.

ب ـ صنفٌ عرفَ وأنكر وهم المغضوب عليهم.

جـ ـ صنفٌ احتار واضطرب وهم الضالون.

٤ـ ذكرُ اللهِ وتلاوةُ القرآن.

٥ـ ذكرُ الموت.



الفصل الخامس

«صفات القلوب»

١ـ القلوب المخبتة :ـ

يقول تعالى : ﴿وليعلمَ الذين أوتوا العلمَ أنّه الحق من ربِّك فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، وإنَّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ ٥٤ الحج .

يظهر لنا أن العِلْم الحقيقي ، العلمَ الموصولَ بالله ، هو سببٌ لإخباتِ القلب وسكونهِ ورضاه عن كلّ ما يحدث به . فهو يعلم أنَّ الفاعلَ الحقيقي في هذا الكون هو اللهُ ، وأنَّ فِعْله لا يصدرُ إلاّ عن حِكْمةٍ ربما نعرفها وربما لا نعرفها ، بل واجِبُنا التّسليم والإخبات .

يقول تعالى : ﴿فلا وربّك لا يؤمنون حتى يَحكّموك فيما شجرَ بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليماً﴾ ٦٥ النساء .

فلا إيمانَ إلا بالتحاكم إلى شرع اللهِ ، ثم الشعور بالسعادة والفرح والتسليم لهذا الحكم ، فهل يملك العبدُ إلاّ

أن يسلّم لأوامر سيّده، وإلّا لأصبحَ هو سيداً آخر!!

٢ـ القلوب الواجفة:

والقلب الواجف هو المضطرب، أي غير المستقرّ ويدل ذلك على الخوف المرتقب، يقول تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذٍ واجفة﴾ ٦، ٧، ٨ النازعات.

ويقول تعالى: ﴿يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾ ٣٧ النور.

ويقول تعالى: ﴿وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر﴾ ١٠ الأحزاب.

ففي الآية الأولى وصف للقلوب الخائفة على مصيرها فإمّا جنّة وإمّا نار. والآية الثانية تتعلق بالآية الأولى حيث تقلب القلب في الآخرة دليل الخوف أيضاً.

أمّا الآية الثالثة فهي وصف للحالة الرهيبة التي وصلتها قلوب الصحابة في غزوة الأحزاب.

٣ـ القلوب المصغية:

صغى معناها مال بسمعه نحوه.

قال تعالى: ﴿إنْ تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ ٤ التحريم. أي مالتْ قلوبكما نحو التوبة وتركتِ الميلَ

للهوى، فمتى صَحَّتِ التوبةُ وتقبّلها القلبُ فقد مال عن الخطأ نحو الصواب وعن الذنب نحو المغفرة وعن الشكّ نحو اليقين. . .

لأنه من المعروف لدينا ـ نحن البشر ـ إذا سمعنا شيئاً تأثرت به قلوبُنا سلباً أو إيجاباً تعظيماً أو تحقيراً، ولذلك فنحن مطالبون بالإكثار من السماع لكتاب الله وفروعه حتى يثمرَ في قلوبنا حُبَّاً وطمأنينةً ورضىً. . .

يقول تعالى: **﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحِي بعضُهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربُّك ما فعلوه، فذرهم وما يفترون، وَلِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾** ١١٣ الأنعام.

الناظر إلى هذه الآية يستشفُّ أنَّ الحقَّ دائماً لا يحتاجُ إلى زينةٍ أو تنميقٍ أو تزويقٍ. . . فهو في ذاته مصدرُ الزينة ومصدرُ الجَمالِ للبشرية بأسرها، أمّا الباطلُ والترويجُ للباطلِ فهـو في ذاته خبيثٌ قبيحٌ منبوذٌ، فلا بدَّ لصانعيه ومروّجيه أنْ يبرزوه في صورةٍ غيرِ صورته وإضافة الرّتوش والرسومات حوله حتى يَأْنسَ إليه المستمعُ ثم يدخل قلبَهُ وبعدها يصبحُ مستعدّاً للدفاع بماله وبنفسه في سبيل هذا الباطل المزركش المنمّق!! فالباطلُ كالخنزير المقلّدِ بالذهب؟! مهما لمع في أعين الناس

فهو خبيث وقبيح، فَمَن كان يصدِّق أنَّ أصنام ماركس ولينين (العظيمين) تداس بالأقدام، فها نحن نراها تنهار في جوف بيتها وبأيدي صانعيها، نعم هذه نهاية كل شيء يتعارض مع الفطرة السليمة، ويحضرني الآن الترويج لدعوات الاختلاط البريء والطاهر. . . !!

فها هم في السويد وبعض أمريكا، وفرنسا نرى النساء تُطالِبُ بعودة المرأةِ إلى بيتها لتكونَ أمَّ أطفالٍ، وزوجةً، وأختاً وجدَّةً، حتى ظهر في بلادهم جنسٌ اسمه الجنس الثالث لا هو إلى الرجال ينتسب ولا إلى النساء ينتسب!! فمتى نرجعُ إلى الاعتدالِ في حياتنا!! والاعتدالُ في كل شيءٍ من صفات ديننا. . .

٤ـ القلوب المتحَسّرة:

الحسرة، هي أشدّ التلهف على الشيء.

يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزَّى، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصير﴾ ١٥٦ آل عمران. في هذه الآية الكريمة وصية لعباد الله المؤمنين ألا يتشبّهوا بالكفار في ردّ القضاء والقَدَر، فالمؤمنُ يعلم علم اليقين أنَّ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء إلّا

بإذن الله الواحد القهار، فيرضى ويسلّم بها لأنّها من مولاه وسيّده. . .

وَرَدَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه خرج في ليلةٍ من ليالي صفّين، فلحقه أحدُ أتباعه فقال له الإمام: ما شأنُك؟ قال: أريدُ حراستَك. قال الإمام: لا حاجةَ لي إليك، «لأنه لا يحدث شيءٌ في الأرض حتى يحدثَ في السماء». ما هذه القلوب الموصولة باللهِ؟ إنها قلوبُ الصفوة مِنْ خَلْقه، قال تعالى: ﴿ومَنْ يؤمن بالله يهَدِ قلبه﴾ ١١ التغابن.

يقـول ابن مسعـود في هذه الآية: هي المصيبة تصيبُ المسلمَ فيعلم أنها مِنَ الله فيرضـى.

ووَرَدَ عن رسول الله (ﷺ) أنه قال لأحد أصحابه: «اللهم اهدِ قلبَه وثبِّت لسانه» رواه ابن ماجه.

٥ ـ القلوب الليّنة:

اللين كما هو معروف ضد الخشونة.

قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ١٥٩ آل عمران.

وقـال تعـالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم

وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله، يهدي به مَنْ يشاء، ومَنْ يضللِ اللهُ فما له من هاد﴾ ٢٣ الزمر.

وقال تعالى: ﴿وجلعنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ ٢٧ الحديد.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنَّةَ أقوامٌ قلوبهم كأفئدة الطير» يعني في الرقّة والحنان.

وقال: «ارحموا مَنْ في الأرض، يرحمكم مَنْ في السماء».

وقال: «مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم».

فالناظر في هذه الآيات الكريمة والأحاديث الطاهرة يعلم أنها تريد أن تغرسُ في قلوبنا شجرةَ الرحمة واللين والرفق لتثمر عناقيدَ مِنَ المحبّة والإخاءِ والتسامح والعفو فيما بيننا، فهل نحن فاعلون؟؟

٦ـ القلوب المؤمنة:

والإيمانُ لغة هو التصديقُ، وشرعاً هو إقرارٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، قال تعالى: ﴿لا يَحزُنكَ الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تُؤمنُ قُلُوبُهم﴾ ٤١ المائدة.

وقال تعالى: ولكنَّ الله حَبَّب إليكم الإيمانَ وزَيَّنه في

قلوبكم﴾ ٧ الحجرات.

وقال تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون مَنْ حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ ٢٢ المجادلة، فالإيمان نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب عبده المؤمن فيجعله يميز بين الحقّ والباطل، بين الشكِّ واليقين، بين الخبيث والطيّب...

والقلوب المؤمنة هي التي تخاف، وهي التي تحبّ، وهي التي تخشع وهي التي تطمئنّ بذكر الله، لأنّها اهتدت إلى بارئها وأناخت ركائِبَها بباب مولاها العزيز الرحيم..

٧ـ القلوب اللاهية:

لها عن الشيء: سلا عنه، وترك ذكره، وأضرب عنه، يقول تعالى: ﴿لاهيةً قلوبُهم وأسروا النجوى﴾[١]. فهذه القلوب قد تركت ذكر خالقها لانشغالها بشيء آخر، يقول تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾، فسبب هذه الغفلة هو كثرة المال والبنين والانشغال بأشياء الدنيا التي من شأنها تَقْسيةُ القلوب وبعدها عن حبيبها وهو الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿كلا بلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[٢] ويقول عليه الصلاة

---

(١) الأنبياء آية ٣. (٢) المطففون آية ١٤.

والسلام: «وإنّه ليغان على قلبي وإني لأستغفر ربي وأتوب إليه في اليوم مائة مرّة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إنّ القلوبَ لتصدأ كما يصدأ الحديد، وإن جلاءَها ذكرُ الله وتلاوةُ القرآن»، ولكن إذا لم يتداركِ الإنسانُ علاجَ قلبهِ اللاهي القاسي بالعلاج مات واستسلم للشيطان الذي يجثو على فوّهة القلب وينام على خيشوم الإنسان! فكأنَّ هذه القلوبَ مغطّاةٌ بغطاءٍ كثيفٍ يحجبها عن نور الله ﴿وقالوا قلوبنا في أكنّةٍ مما تدعوننا إليه﴾[1] فتصبح لا تَعِي ولا تفهم، يقول تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها﴾[2].

فالذي يفقه هو القلب، والذي يعقل هو القلب والذي يفهم هو القلب، لأنه هو الذي إذا انشرح لشيءٍ أصبح يحبّه وإذا أحبّه تلقّى عنه وفهمه وأصبح مستعداً للموت في سبيل ذلك، وإذا أظلم القلب عن رؤية شيء فكيف الوصال واللقاء بينه وبين حُبّه؟! فالشمس موجودة، والطيور على الأشجار مغرّدة ومسرورة؟ لكن هل يراها فاقد البصر؟ لا، هكذا لا يرى أعمى القلب الخيرَ والفضيلةَ والعدل بل يرى بعين الشيطان الذي يُزَيِّن له كلَّ فعلِ سوءٍ على أنه هو الحق!! ﴿إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[3]

(١) فصلت آية ٥.	(٢) الحج آية ٤٦.

(٣) الحج آية ٤٦.

وهذه القلوب العمياءُ، قلوبٌ قاسيةٌ، منكِرةٌ لكلِّ حق، متكَبّرةٌ، مغرورةٌ، زائغةٌ عن الحقِّ، يقول تعالى ﴿**وقالوا قلوبنا غُلْفٌ، بل لعنهم الله بكفرهم**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكِرة**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**فلمّا زاغوا، أزاغ الله قلوبهم**﴾[4]، وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ومحذّراً إياه من طاعة الذين أعماهم الهوى: ﴿**ولا تطع مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبعَ هواه وكان أمره فرطا**﴾[5]، فإذا وصل القلب إلى هذه المرحلة من القساوة والنكران، كان لا بدّ من طبعه بخَتْمٍ لا يُفْتَحُ بعدَها أبداً، يقول تعالى: ﴿**كذلك يطبعُ الله على كلِّ قلب متكبر جبار**﴾[6]، ويقول تعالى: ﴿**ونطبعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون**﴾[7].

اللهم ثبّت قلوبنا على دينك حتى نلقاك،

اللهم اقذف فيها حبّك وحب رسولك،

اللهم لا تخزنا بأعمالنا، فارحم واعف إنك أنت العفوّ الغفور...

---

(١) البقرة آية ٨٨.

(٢) النحل آية ٢٢.

(٣) الزمر آية ٤٥.

(٤) الصف آية ٥.

(٥) الكهف آية ٢٨.

(٦) غافر آية ٣٥.

(٧) الأعراف آية ١٠٠.

٨ـ القلوب الشاكرة:

وهي القلوب التي عرفت الله سبحانه، والتزمت أوامره واجتنبت نواهيه، هي قلوب سعيدة، قلوب مطمئنة دائماً على جميع الأحوال؛ في السراء والضراء. ورد عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أنه قال: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»، ويقول أبو الدرداء (رضي الله عنه): «المؤمن ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، واللهِ إنَّه للحَقُّ في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله» رواه الترمذي.

ووَرَدَ عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «أربعٌ مَنْ أعطيهنَّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة:

* قلب شاكر
* ولسان ذاكر
* وبدن على البلاء صابر
* وزوجة لا تبغيه خِوناً في نفسها ولا ماله.

فانظر أخي المسلم إلى هذه الأمور التي جمعت خير الدنيا والآخرة، فاعرِضْ نفسَك عليها، وكم عندك منها؟؟ اللهم أعِنّا على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك ولا تجعلنا من الغافلين..

وعن المغيرة عن عامرٍ قال: «الشكر نصف الإيمان»، وقال عبدالله بن عبّاس (رضي الله عنهما): «كلمةُ «الحمدُ للهِ»، هي كلمةُ كلِّ شاكر».

قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فقُلِ الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾(١). وقال إبراهيم عليه السلام: الحمدُ للهِ الذي وهب لي على الكبرِ إسماعيل وإسحاق﴾(٢).

وقال تعالى في قصة داوود وسليمان: ﴿الحمدُ لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾(٣). وقال تعالى لرسوله الكريم: ﴿وقلِ الحمدُ لله الذي لم يتخذ ولدا﴾(٤)، وقال أهل الجنّة: ﴿الحمدُ لله الذي أذهب عنّا الحُزن﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وآخر دعواهم أَنِ الحمدُ لله رب العالمين﴾(٦).

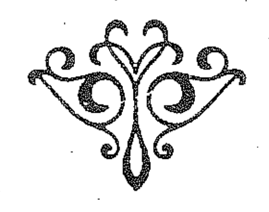
رُوي عن أحدِ الحمّالين أنّه كان يحمل حملاً ثقيلاً من الحطب تئِنُّ رجلاه مِنْ ثقله، وكان يقول في هذه الحال: «الحمدُ لله، الحمدُ لله» يكرّرها كثيراً ثم يقول: «استغفر الله، استغفر الله» وهكذا يُزاوج بين الحمد والاستغفار، فسأله أحدُ الناس ما سبب قولك هذا؟ فردَّ عليه الحمّال: «أنا بين حالتين

(١) المؤمنون آية ٢٨.
(٢) إبراهيم آية ٣٩.
(٣) النحل آية ١٥.
(٤) الإسراء آية ١١١.
(٥) فاطر آية ٣٤.
(٦) يونس آية ١٠.

اثنتين لا ثالث لهما: إمّا في نِعْمةٍ أنعمها اللهُ عليَّ، فشكرُها: الحمد لله.

وإمّا في ذنبٍ جَنَيْتُه على نفسي، فاستغفر الله منه، هذه أحوالُ أصحابِ القلوب الشاكرة الطاهرة. فهل نحن من أصحابها؟!

شكر رجلٌ آخرَ على معروف صنعه له، فقال: «الحمدُ لله على توفيقه إيّاكَ في إعطائي، وعلى توفيقه إيّاي في مسألة مثلك، أعاشك اللهُ صالحاً».



الفصل السادس

«كلماتٌ أغلى من الذهب[1]

إلى قلوبٍ تخشى اللهب»

دخـل النبيُّ (ﷺ) على عائشـة (رضي الله عنها) فرأى كِسْرةً ملقاةٍ، فمسحها، وقال: «يا عائشةُ حَسِّني جوار نِعَمِ الله عزَّ وجل، فإنها قلَّما نفرت عن أهل بيتَ، فكادت أن ترجع إليهم».

* كان الحسنُ البصريُّ يفتتح حديثه قائلاً:

(الحمد لله، اللهم ربَّنا لك الحمد كما خلقتنا، ورزقتنا، وهـديتنـا، وعَلّمتنـا، وأنقـذتنا، وفَرَّجت عنّا، لك الحمدُ بالإسلام والقرآن، ولك الحمدُ بالأهل والمال، والمعافاة، وكـلَّ ما سألنـاك ـ ربّنا ـ أعطيتنا، فلك الحمدُ على ذلك حمـداً كثيراً، لك الحمد بكلِّ نِعْمةٍ أنعمت بها علينا في قديم وحديث، لك الحمدُ حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيتَ».

---

(١) من كتاب الشكر لأبي أبي الدنيا ص ١٥، ١٦.

* عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): «يؤتى بالنِّعَم يوم القيامة والحسنات والسيئات، فيقول الله عز وجل لِنِعْمةٍ مِنْ نِعَمه: خذي حقَّك من حسناته، فما تترك له حسنةً إلا ذهبتْ بها».

* عن عتبة بن عامر قال: قال رسول الله (ﷺ): «إذا رأيتَ اللهَ عزَّ وجل يُعطي العبادَ ما يشاؤون على معاصيهم إياه، فذلك استدراج منه لهم».

* عن يونس بن عبيد قال: قال رجلٌ لأحد الصالحين: كيفَ أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ بين نِعْمتين لا أدري أيُّهما أفضل: ذنوبٍ سترها اللهُ فلا يستطيع أن يُعَيِّرني بها أحد، ومودّةٍ قذفها في قلوب العباد لم يبلُغْها عملي».

* قال يحيى بن سعيد: مَنْ قال: «الحمدُ لله رب العالمين على كلِّ نِعْمةٍ كانت أو هي كائنة خاصة أو عامّة، فقد حمد الله على كلّ نعمة كانت أو ستكون.

ومَنْ قال: «إنا لله وإنّا إليه راجعون» على كلّ مصيبةٍ كانت أو هي كائنة خاصة أو عامّة، فقد استرجع من كل مصيبة.

* حُدّث عبدُ الرحمن بن زيد، قال ابن المنذر لأبي حازم: ما أكثرَ مَنْ يلقاني فيدعو لي بالخير! ما أعرفهم، وما صنعتُ لهم خيراً قط؟! فقال أبو حازم: «لا تظنّ أن ذلك من قِبَلِكَ

ولكن انظر إلى الذي جاءَك ذلك مِنْ قِبَلِهِ، فاشكره وقرأ: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سيجعل لهم الرحمن ودًّا﴾(١).

* قال رَجلٌ لأبي حازم:

ما شكرُ العينين؟

قال: إذا رأيتَ بها خيراً، أَعْلَنْتَه، وإنْ رأيتَ بها شرّاً سترته.

قال: فما شكرُ اليدين؟

قال: لا تأخذْ بهما ما ليس لهما، ولا تمنعْ حقّاً لله هو فيهما.

قال: فما شكرُ الأذنين؟

قال: إن سمعتَ بهما خيراً وَعَيْتَه، وإنْ سمعتَ بهما شرّاً دفَنْته.

قال: فما شكرُ البطن؟

قال: أن يكون أسفله طعاماً، وأعلاه علماً.

قال: فما شكرُ الفروج؟

قال: كما قال تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنهم غير ملومين، فَمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾(٢)

---

(١) مريم آية ٩٦. (٢) المؤمنون آية ٦، ٧.

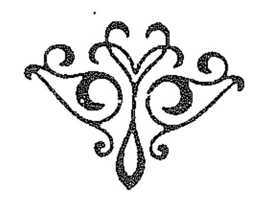
يا لهم مِنْ أُناسٍ كانوا لله وبالله وإلى الله!!

كيف لو جئتَنا يا أبا حازمٍ ونحن في المسجد في شهر رمضان؟

ماذا ستقول عنّا؟؟!!

الحمدُ لله الذي باعدَ بينك وبيننا حتى لا تموت فجأة!!

ولكن... نسأل الله العفو والعافية.



الفصل السابع

«قطوف دانية»(١)

للقلوب الحانية»

* دعاءُ مريضٍ بالحمّى:

قال عباية أبو غسان: حُمِمْتُ بنيسابورَ حتى أطبقت عليَّ الحمّى، فدعوت بهذا الدعاء:

«إلهي، كلما أنْعمتَ عليَّ نِعْمةً قلَّ عندها شكري، وكلما ابتليتَني ببليَّةٍ قلَّ عندها صبري، فيا مَنْ قلَّ شكري عند نِعمه فلم يخذلني، ويا مَنْ رآني على المعاصي فلم يفضحني، اكشف ضرّي».

قال: فذهب عنّي بالحال.

* دعاءُ مذنبٍ يرجو المغفرة:

يا إلهي، خيرُكَ إليَّ نازل، وشرّي إليك صاعد، وكم من مَلَكٍ كريم قد صعد إليك بعملٍ قبيح وأنت مع غِنائك عنّي تتحَبَّبُ إليَّ

(١) كتاب الفرج بعد الشدة.

بالنِّعَم وأنا مع فقري أتمَقَّتُ إليك بالمعاصي، فيا مَنْ سترت العيوبَ، أسألك مغفرةً أنت أهلُها، فاغفر وارحم عبداً لا تنفعك طاعتهُ ولا تضرك معصيتُه. . . !!

* دعاءُ المكروب:

روي عن رسول الله (ﷺ)، أنّه إذا أصابه كربٌ قال: «حسبيَ الربُّ من العبادِ، حسبي الخالق من المخلوق، حسبي الرازق من المرزوق، حسبي الله الذي هو حسبي، حسبي الله ونِعْم الوكيل، حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم».

* دعاءٌ للفرج:

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنه كان يدعو بهذا الدعاء للفرج، كان يقول: «يا مَنْ تُحَلُّ به عقد المكاره، ويفلُّ حدّ الشدائد ويا مَنْ يُلْتَمس به المخرج، ويُطْلب منه رَوْحُ الفرج، أنتَ المدعوّ في المهمات، لا يندفع منها إلا ما دفعتَ، ولا ينكشفُ منها إلا ما كشفتَ، قد نزل بي ما قد علمتَ، وقد كادني ثقله، وبقدرتك أو ردتَه عليَّ، وبسلطانك وجهتَه إليَّ، ولا مُصْدِرَ لما أوردتَ. ولا كاشِفَ لما وجهتَ. ولا فاتحَ لما أغلقت، ولا ميسرَ لما عسّرتَ، ولا معسرّ لما يسّرتَ، فصَلِّ اللهم على محمد وعلى آل محمد، وافتح لي باب الفرج بطَوْلك واحبس عنّي سلطان الهَمّ بحَوْلك، وأَنِلني حُسْنَ النظر فيما شكوت، وأذقني حلاوة الصنع فيما سألت، وَهَبْ لي من لدنك فرجاً هنيِّاً

عاجلاً، واجعل لي من عندك فرجاً قريباً، ومخرجاً رحباً، ولا تشغلني، بالاهتمام عن تعاهُدِ فروضك، واستعمال سنّتك، فقد ضقتُ ذرعاً بما عَراني، وتحَيّرتُ فيما نزل بي ودهاني، وضعفتُ عن حمل ما قد أثقلني هَمّاً، وتبدلتُ بما أنا فيه قلقاً وغَمّاً، وأنتَ القادرُ على كشفِ ما قد وقعتُ فيه، فافعل بي ذلك يا سيّدي ومولاي وإنْ لم استحقّه، وأَجِبْني إليه وإنْ لم أستوجِبْهُ، يا ذا العرش العظيم»

يقال ثلاث مرات.



الفصل الثامن

«أنواع الصبر»

أحدها: الأمر به كقوله: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ ﴿واصبر لحكم ربك﴾.

الثاني: النهي عمّا يضاده كقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ وقوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾. وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنّه يضاد الصبر المأمور به.

الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، فعلّق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابر على غيره كقوله: ﴿إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر. قال الله تعالى: ﴿إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. قال: كالماء المنهمر.

الخامس: تعليق الإمامة في الدين به وباليقين. قال الله

تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

السادس: ظفرهم بمعية الله سبحانه لهم. قال تعالى: ﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾. قال أبو علي الدقاق: «فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته».

السابع: أنَّه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم. قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾. وقال بعض السلف وقد عزي على مصيبة نالته فقال: مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها.

الثامن: أنّه سبحانه جعل الصبر عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. فمن لا صبر له لا عون له.

التاسع: أنّه سبحانه علّق النصر بالصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾. ولهذا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «واعلم أن النصر مع الصبر».

العاشر: أنَّه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنّة عظيمة من كيد العدو ومكره، فما استجن العبد من ذلك جنّة أعظم منهما. قال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾.

الحادي عشر: أنَّه سبحانه أخبر أنَّ ملائكته تسلم عليهم في الجنة كما قال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار﴾.

الثاني عشر: أنَّه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به ثم أقسم قسماً مؤكداً غاية التأكيد أنَّ صبرهم خيرٌ لهم فقال: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين﴾. فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب.

الثالث عشر: أنَّه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجرٌ كبير﴾. وهؤلاء ثنية[1] الله

---

(١) ثنية الله أي الذين استثناهم الله. ومثله حديث كعب وقيل ابن جبير: «الشهداء ثنية الله في الخلق» أي الذين استثناهم الله ن الصعق الذي يصيب الخلق إذا نفخ في الصور.

من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما.

الرابع عشر: أنّه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾**. وقال لقمان لابنه **﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾**.

الخامس عشر: أنّه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم وهي الكلمة الحسنى، وأخبر أنّه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾**.

السادس عشر: أنّه سبحانه علّق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾**.

السابع عشر: أنّه سبحانه أخبر عن خصال الخير، أنّه لا يلقاها إلا الصابرون، في موضعين من كتابه في سورة

القصص، في قصة قارون، وإن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾. وفي سورة حم، فصلت، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة كأنه حبيب قريب. ثم قال: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

الثامن عشر: أنَّه سبحانه أخبر أنَّه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إنَّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وقال تعالى في لقمان: ﴿ألم تر أنَّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إنَّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وقال في قصة سبأ: ﴿وجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إنَّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. وقال تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إنَّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أنَّ آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر: أنَّه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: ﴿إنّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾. فأطلق

عليه نِعْمَ العبد بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أنَّ مَنْ لم يصبر إذا ابتلى فإنَّه بئس العبد.

العشرون: أنَّه سبحانه حكم بالخسران حكماً عاماً على كل مَنْ لم يؤمن ولم يكن مِن أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنَّه لا رابح سواهم، فقال تعالى: **﴿والعصر، إنَّ الإنسان لفي خسر، إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**. ولهذا قال الشافعي: «لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم». ولذلك إنَّ العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح. وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأخيه ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنَّما هو الصبر.

الحادي والعشرون: أنَّه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم، فقال تعالى: **﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة﴾**. وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان، والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام، هؤلاء خير الأقسام، وشرهم مَنْ لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه مَنْ لا صبر ولا رحمة عنده. ويليه القسم الرابع وهو مَنْ له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

الثاني والعشرون: أنَّه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً كقوله: ﴿إلَّا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾. وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إنَّه مَنْ يتقِ ويصبر﴾. وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾. وجعله قرين اليقين كقوله: ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. وجعله قرين الصدق كقوله: ﴿والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات﴾. وجعله سبب محبته ومعيته ونصره وعونه وحسن جزائه. ويكفي بعض ذلك شرفاً وفضلاً والله أعلم.



الفصل التاسع

«الإيمان: صبر وشكر»

الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر. قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿**إنَّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور**﴾ في سورة إبراهيم وفي سورة حمعسق وفي سورة سبأ وفي صورة لقمان. وقد ذكر لهذا التصنيف اعتبارات:

* أحدها أنَّ الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية. والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور وترك المحظور.

* الاعتبار الثاني، أنَّ الإيمان مبنى على ركنين: يقين وصبر. وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾. فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما

أمـر به ويكف نفسه عمّا نهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنَّه من عند الله والثواب والعقاب إلاَّ باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلاّ بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر، بفعل ما أمر به وبترك ما نهي عنه.

* اعتبـار الثالث، أنَّ الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح. وبيان ذلك أنَّ مَنْ عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً، كما قال عن قوم فرعون: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم**﴾. وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿**وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين**﴾. وقال موسى لفرعون: ﴿**لقد علمت ما أنـزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائر**﴾. فهؤلاء حصـل قول القلب وهـو المعرفـة والعلم ولم يكـونوا بذلك مؤمنين، وكذلك مَنْ قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين، وكذلك مَنْ عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة، فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعـادي أعـداءه ويستسلم بقبله لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعنه والتزام شريعته ظاهراً وباطناً. وإذا فعل ذلك لم

يكف في كمـال إيمـانه حتى يفعل ما أمر به، فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق في النهي، وكـلاهمـا لا يحصل إلا بالصبر، فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

* الاعتبار الرابع أنَّ النفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين، فتقدم على ما تحبه وتحجم عمّا تكرهه. والدين كله إقدام وإحجام، إقـدام على طاعـة وإحجام عن معاصي الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

* الاعتبار الخامس، أنَّ الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالى: ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً**﴾. وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه: «اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفـوضت أمـري إليك وألجأت ظهري إليك رغبـة ورهبة». فلا تجد المؤمن أبداً إلَّا راغباً وراهباً. والـرغبة والرهبة لا تقوم إلَّا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

* الاعتبار السادس، أنَّ جميع ما يباشره العبد في هذه

الدار لا يخرج عمّا ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والآخـرة، أو ينفعـه في أحـد الـدارين ويضره في الأخرى. وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر وترك ما يضره هو الصبر.

* الاعتبار السابع، أنَّ العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهي يتـركه وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر. ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور

* الاعتبار الثامن، أنَّ للعبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعـد فيهـا لأوليائه من النعيم المقيم. فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

* الاعتبار التاسع، أنَّ الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمـد، والثاني عن النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أني أسـألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأصل الشكر صحـة العـزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيد العبد بعزيمة وثبات فقد أُيد بالمعونة والتوفيق.

* الاعتبار العاشر، أنَّ الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾. ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس. وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلاَّ بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه أعلم.

ملاحظة: الفصل الثامن والتاسع نقلتهما من كتاب عدة الصابرين للإمام إبن قيّم الجوزية لأهمتهما. وتعلقهما بمادة البحث.



الخاتـمة

مِنْ خلال ما تقـدمَ أخي المسلـم، علمنا أن القلب هو رأس مال الإنسان الحقيقي، فهو إمّا مستودع الإيمان والعمل الصـالـح، أو مستـودع المعاصي والنفاق وغيرها من أعمال الفســاد، لذا كان واجبـاً على كلِّ مسلم أن يتحَسَّس قلبـه، ويتفقّده باستمرار، بالصيانة والرعاية حتى لا يبقى فيه إلا حبُّ المولى عز وجل وحبُّ ما يحبُّه، ألـم نسمع بقصّة سيدنا إبراهيم مع ولـده إسمـاعيل حينمـا هَمَّ بذبحه؟؟ بناءً على رؤيةٍ في المنـام؟ إنـه أمـر الحبيب (الله)، وهكذا أحوال مَنْ يحبّ، يضحّي في سبيل محبوبه. . .

تصور أخي المسلـم، لو علمِتْ أن الطبيب قال لك إنك تشكـو من مرض في القلب الجسماني ماذا ستفعل؟؟ طبعاً ستحـاول بشتى الـوسـائـل والـطرق وتـدفع الغالي والنفيس لمعـالجتـه، حتى تستقيم صحتـك وحتى تستـطيع مواصلة عملك، فلماذا لا نحاول ترميم ما فسد من قلوبنا وإصلاحه، لتتمَّ لنا سعادة الدار الآخرة.

ورد عن أحـد الصـالحين أنـه كان يكثر من غناء هذين البيتين من الشعر:

يا ربِّ جُدْ لي إذا ما ضَمّني جدثي
برحمـــةٍ منـــك تنجيني من النـــار

أحسِنُ جواري إذا أمسيتُ جارك في
لحـــدٍ فإنـــك قد أُوْصَيْتَ بالجـــار

فلما توفاه الله سبحانه. رآه أحدُ أصحابه في المنام فقال له: كيف وجدتَ رَبّك؟ قال: وجدتُه خيرَ جارٍ. . .

اللهم أحسِنْ جوارنا، يومِ يتركنا الأهل والخلاّن والأحباب.

اللهم آنِسْ وحشتنا، يا أنيس كل غريب. . .،

وأخيراً، أسأل الله الكريم أن يجزل الخير والثواب لكلِّ مَنْ ساهم بإخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود سواء أكان دعماً معنوياً أو مادياً، ويقول عليه السلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

فأسأل الله أن يكون هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون. . . نعم يوم لا ينفع مال ولا بنون. . .

تم الكتاب بحمد الله

محمد يوسف خضر

ليلة ٢١/رجب / ١٤١٢هـ

٢٦/كانون ثاني / ١٩٩٢م

الفهرس

